إذا كانت هداية التوفيق

مِن الله تعالى وَحْدَهُ

فما موقف الضال

الذي لم تنله هذه الهداية ؟

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(حول تفسير سورة الفاتحة)
من الصفحة ١٤٧ حتى الصفحة ١٥٩

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناء على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم مؤلفات الإمام
- المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

وههنا مسألتان:

الأولى: إذا كانت هداية التوفيق هي من الله تعالى وحده لا يملكها غيره؛ فما هو موقف الضالِّ الذي لم تنله هداية التوفيق؛ ما هو موقفه من الجزاء؟

الثانية: المؤمنون مأمورون أن يقولوا في صلواتهم؛ وغير صلواتهم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في حين أنهم مهتدون، فما المقصود من سؤالهم الهداية؟

الجواب عن المسألة الأولى:

إن الله تعالى قد أوجب على نفسه ـ رحمة منه وفضلاً ـ هداية البيان والدلالة كما تقدم، وذلك بأن يبعث الرسل وينزل الكتب فتبيِّن للناس، ويهدونهم إلى طريق الحق، ويدلونهم عليه،

ويأتونهم بالحجج والبراهين ، والآيات والبينات ، بحيث لا تُبقي لهم عذراً لمعتذر ، كما قال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ويبقى كل رسول مع أمته مدةً طويلة واسعة من الزمان ، وهو يُحاجّهم ويناظرهم ، ويبيّن لهم ، فبعد البيان والتبيان فهناك يعلمون الحق من الباطل ، ويعرفون ما ينفع وما يضر ، ويفرقون بين الهدى والضلال ـ يعرفون ذلك كله ، فبعد هذه المعرفة:

منهم من يميل قلبه ويحب اتباع الحق بعد معرفته بذلك ، ويستحسنه فيشرح الله صدره، ويفتح قلبه ، فيُلقي فيه نور الإيمان، فيُقرّ ويعترف ، ويعلن ذلك بالشهادتين معبّراً عمّا في قلبه.

ومنهم من يعرف ولكن لا يعترف ، ويعلم حقيّة ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ولكن يجحد بعدما علم وينكر ، وذلك: إما بسبب كِبر النفس قال تعالى: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ ، وقال تعالى ـ في قوم فرعون ـ: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ وإما بسبب اتباع أهوائهم وشهواتهم ، فإنها لا تتفق مع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي: كذبوا بالحق الذي جئت به ، وقد علموا أنه الحق ، ولكنه مخالف لأهوائهم الفاسدة ، وما هم عليه من الشهوات البهيمية ، ومن ثَمَّ قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾.

والمعنى: أنهم إن لم يستجيبوا لك حين تدعوهم إلى الحق ونور الهدى بعدما بان لهم ببيناتك التي جئتهم بها ، فاعلم أنّهم يتبعون أهواءهم لأنهم قوم لا يريدون الحق ، وإنما يمشون وراء أهوائهم

الباطلة ، ولذلك كان شأنهم دائماً بأن يعرضوا ويعارضوا ، ويصرُّوا على كفرهم وبغيهم مراراً وتكراراً ، حتى إذا بلغوا غاية الجحود والعناد ، والظلم والفساد ، طبع الله تعالى على قلوبهم الكفر ـ عقوبةً لهم من جنس عملهم ـ فهم لا يؤمنون.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ـ أي: الذين ستروا الحق الذي جئتهم به ، وألقوا الحجاب وأصرّوا ، ومردوا على الكفر مع بيانك وتبيانك يا رسول الله ـ ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ عقوبةً لهم، وجزاء على إصرارهم على الكفر ، وإعراضهم عن الحق بعدما عرفوه.

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ أي: متكبر عن قبول الحق بعدما تبين له ، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: لأنّهم فسقوا فجاوزوا الحدود الشرعية تجاوزاً بعيداً، منكرين ومتكبرين، ومعرضين عنها استمراراً وإصراراً ، كما قال سبحانه: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

فهم طُغاة بُغاة ، استحبوا العمى على الهدى ، واختاروا طريق الفساد والغيّ والردى ، فأعطاهم العمى فهم يعمهون.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي:

بيّنا لهم الحق وسبيل الرشاد فأعرضوا ، واستحبوا العمى على الهدى ، وهذا من باب العدل الإلهي ، فإنّ هذه العقوبات بالطبع والختم على قلوبهم وما هنالك ، كانت بأسباب جرائمهم الصادرة عنهم باختيارهم ، وإعراضهم ، وتكبرهم عن قبول الحق بعدما تبين لهم ، وإصرارهم على الضلال ، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ فهداهم ـ أي: بين الله تعالى لهم ـ بواسطة الرسل وإنزال الكتب ، وبالآيات والبيّنات ، ومناظرات الرسل لهم ، فبيّن لهم حتى بان لهم نور الحق فأعرضوا ، وبصّرهم نور الحق فتعاموا ، وأسمعهم كلام الحق فتصامّوا؛ فعاقبهم بأن جعلهم صمّاً بكماً عمياً القلوب.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

فقد أقسم سبحانه بالقرآن الحكيم ـ أي: الجامع لأنواع الحكمة ، التي لا تحصى ـ على أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو من المرسلين ، لا يحتمل أمره أنْ يكون شاعراً أو ساحراً أو كاهناً؛ ولا ولا... بل هو رسول الله حقاً ، فإنّه قد مضت قبله رسل ثبتت رسالتهم بالبينات والمعجزات ، وإنْزال الكتب الإلهية عليهم ، وإن كل الشواهد والبراهين والأدلة والآيات والمعجزات التي أثبتت رسالة من قبله ؛ هي كلها مجتمعة لتصديق

سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد أُوتي من المعجزات وخوارق العادات فوق معجزات الرسل قبله ، وإنّ الكتاب الذي جاء به هو أجمع من الكتب النازلة على الرسل قبله ، وأعظمها ، وقد جاء هذا الكتاب على وجوه من الإعجاز مع التحدي لجميع العالم بأن يأتوا بسورة مثله ، ولذا قال سبحانه: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: لا يحتمل أن يكون هذا الكتاب الحكيم من كلام المخلوقين: الإنس والجن وغيرهما ، بل هو قطعاً تنزيل من الله العزيز الرحيم ، جاء لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم ، ويبين لهم الحق بالحجج والأدلة ، وأوضح لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبيَّن لهم ، وحاجَّهم ، وناظرهم ، وأقام عليهم الحجة والبراهين القاطعة ، وأراهم أنواعاً من المعجزات المرئية ، ومع ذلك فهم يجحدون ويعرضون ويكذبون ، واستمروا على ما هم عليه ، وأصروا ، وعاندوا ، وعارضوا ، فكانت النتيجة أنْ حق عليهم القول ، وهو قوله تعالى ـ لإبليس ـ: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

فَضُرب الكفر عليهم ، وسدّت عليهم الأبواب عقوبة لهم .

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ .

فلما فسقوا وأصروا على كفرهم ، ولم يزدجروا؛ حق عليهم القول بتدميرهم ، فلقد أخذهم بالعذاب المدمّر لهم: بالحق لا بالظلم ، كما قال تعالى ـ في الكفار من الأمم السابقة ـ: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: لأنهم

كفروا ، أي: جحدوا الحق بعدما تبين لهم ، وستروه بعدما عرفوه ، فما ظلمهم الله تعالى ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

فكانت معاقبته سبحانه لهم في الدنيا والآخرة من باب العدل ، لا من باب الظلم ، فإنّ تصرفه في عباده لا ظلم فيه ، ولا جَور ، بل هو على صراط الحق والعدل والحكمة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فانظر في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: هكذا عادته سبحانه ، ومقتضى حكمته وعدله ، أنْ يجعل هذا الرجس ، وهو الكفر بسبب ضيق الصدر الذي صاروا إليه ؛ يجعله على الذين لا يؤمنون بالحق بعدما تبين لهم ، فكذبوا بالآيات البينات ، ولم يصدقوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا بما جاء به من الآيات القرآنية المعجزة ، ولا بيِّناته القاطعة ، بل جحدوا بذلك بعد علمهم أنّها حق من عند الله تعالى ، وأنّ الذي جاء به هو رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم.

كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

والمعنى: أنّهم يعلمون يقيناً أنّك صادق ، وأنَّ الآيات التي تتلوها هي ليست من عندك؛ ولا كلام المخلوقين لإعجازها ،

ولكنّهم ظالمون ، فراحوا يجحدون بعد علم ، وينسبونك إلى الكذب وهم على عِلم أنّك الصادق الأمين ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكان ذلك منهم عن كبر وطغيان ، كما قال تعالى ـ عن فرعون وقومه ـ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ أي: لا يصدقون بالحق بعدما ظهر لهم ، بل يجحدون بعد علم ـ في هذا دليل على أنّ الذي هداه الله تعالى ، وشرح صدره قد اختار الإيمان واستحسنه، واستحب الهدى على الضلال والعمى، لما تبين الحق له وآمن ـ أي: صدَّق بالآيات والبينات التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فهداه الله تعالى هداية التوفيق ، وثبت ذلك في قلبه ، فشرح الله صدره ووسعه ، وألقى فيه النور الإيماني ، كما قال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فشرح الله تعالى صدر الذي استحب الهدى واختاره ، فملأ سبحانه قلبه نوراً إيمانياً ، بحيث لا يرتد ، وصبغه صبغة إيمانية لا تُمحى قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾.

ثم قال سبحانه ـ بعدما ذكر المؤمن الذي شرح الله صدره ، وتضييق صدر الكافر الجاحد ـ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وأشار بقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا﴾ ـ أي: ما تقدم ذكره من شرح صدر ذاك ، وتضييق صدر ذاك ـ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ أي: صراط الحق والعدل الإلهي ، ومقتضى الحكمة الربانية ، فهو سبحانه يدبر أمور عباده ، ويتصرف في ملكه على طريق العدل ،

وصراط الحق، كما هو مُقتضى حكمته الربانية، فإنه العليم الحكيم، لا ظلم ولا جور، بل جميع ذلك على صراط الحق والعدل المستقيم.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

فلا اعتراض على الحكيم العليم، ولا اعتراض على عدله المستقيم، فهو سبحانه قوله الفصل، وقضاؤه العدل، كما جاء في الحديث: «اللهم إنّي عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أنْ تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري» ـ وفي رواية: «ونور بصري» ـ وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي»[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

فلما عرفوا الحق استجابوا له، وقالوا: ربّنا آمنا، فعملوا بموجب ما عرفوا وسألوا الله تعالى أنْ يَكْتُبهم مع الشاهدين، وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذين يشهدون على من قبلهم من الأمم.

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ

---

(١) كما في الترمذي والمسند.

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

فهذا موقف المؤمنين الأخيار مع كتاب الله تعالى .

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن الذين كفروا ـ أي: ستروا ـ وجحدوا الحق بعدما تبين لهم ، وعرفوه واتضح لهم ، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ .

فهذا موقف الكفار والأشرار مع آيات الله تعالى .

اللهم اجعلنا من ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ .

فالله تعالى في جميع تدبيره وتصرفه بمخلوقاته: خفضهم ورفعهم ، وإعزازهم وإذلالهم ، وإماتتهم وإحيائهم ، وفي جميع معاملاته مع عباده هو في ذلك كله على صراط مستقيم ، وهو صراط الحكمة الربانية والعدل الإلهي ، فإنّه العليم الخبير بعباده ، علماً قديماً أزلياً لا أول له ، ومحيطاً لا نهاية له ، فهو العليم بمواقع الفضل الإيماني وأهله ، قال تعالى ـ في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ .

فهو سبحانه العليم الحكيم ، والحكمة تقتضي وضع الأمور في مواضعها اللائقة فيها:

قال تعالى: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ فهو سبحانه يضع فضله موضعه .

وقال تعالى ـ في الكفار ـ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فهم ينفرون من سماع القرآن والإيمان ، وتضيق صدورهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ ويستحبون ويختارون العمى على الهدى ، وتنشرح صدورهم للكفر ، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: الذين جاءهم الحق واتضح لهم بالبينات حتى بان لهم الحق وظهر لهم وعرفوه ، ولكنهم جحدوا به بعد علم ، ولم يقروا ، ولم يعترفوا بل أخفوه وستروه ، ولذلك سماهم الله تعالى كفاراً ، والكفر هو: ستر الحق بعدما وضح ، ولذلك قال تعالى فيهم إذا جاءت القيامة: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ الآية.

فرتب جميع ذلك على اختيارهم الضلال ، واستحسانهم له ، ومحبتهم إيّاه ، وكراهيتهم للهدى والإيمان بعدما ظهر لهم بالحجة والبرهان ، فعوقبوا بالطبع على القلوب والسمع والأبصار ـ والعياذ بالله تعالى من ذلك كله.

فالله تعالى كما قال: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ، فهو الرب سبحانه ، والكل عباده ، وهو في تصرفه بعباده على صراط مستقيم ، قال تعالى ـ مخبراً عن هود عليه السلام ـ: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: الحكمة البالغة والعدل القويم ، ويسمى هذا صراط الربوبية وهو صراط الحق والحكمة الإلهية ، التي يدبر بها أمور الخلائق ،

ويتصرف فيهم ، وأما الصراط في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو صراط الإسلام لله تعالى ، والعبودية له تعالى.

وفي الحديث: «اللهم أَنْت ربي لا إلَه إلاّ أنت عليك توكلت وأَنْت ربُّ العرش العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعْلم أنّ الله على كل شيء قدير ، وأنّ الله قَد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

اللهم إنِّي أعوذ بك من شرّ نفسي ، ومن شرّ كل دابَّةٍ أنت آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم».

فإنْ قيل: إنّ مشيئة العبد واختياره الأمور التكليفية والقيام بها ، أو عدم اختياره لها وقيامه بها ـ هذا الاختيار هو بخلق الله تعالى ومشيئة الله تعالى ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إذاً فمشيئة العبد واختياره ليس لذلك أثر ولا اعتبار.

فالجواب: نعم إنّ مشيئة العبد واختياره وأفعاله كلها مخلوقة ، خلقها الله تعالى ، ولكن لا يلزم من كون ذلك بمشيئة الله تعالى ، وكون الشيء مخلوقاً له تعالى: لا يلزم من ذلك أنْ لا يكون له أثر في الوجود ، ولا حكم له في الواقع ، ولا يترتب عليه ثواب أو عقاب ، فإنّ الاختيار والمشيئة هما من صفات العبد التي خلقها الله تعالى فيه ، كالحياة والسمع والبصر ، والقدرة والكلام ، والعلم والعقل ، فإنَّ جميع ذلك هو بخلق الله تعالى ومشيئته سبحانه ، ولكن لها أثرها في الوجود ، ولها اعتبار وحكم في الواقع ، ويترتب عليها حقوق وواجبات ومسؤوليات.

فالإنسان حيّ بخلق الله تعالى فيه الحياة، فالله تعالى هو المحيي، والعبد حيّ ، وحياته لها أثرها في الرواح والمجيء ، والحركات

والسكنات ، والأقوال والأعمال ، وهو حيٌّ حقيقة بحياة مخلوقة فيه ، لا وهماً ولا خيالاً ـ بدليل أنّ هناك ميتاً ليس فيه حياة.

وهكذا العبد يسمع بالسمع الذي خلقه الله تعالى فيه ، وبمشيئة الله تعالى ، ويبصر كذلك حقيقة ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: حقيقةً لكن بخلقه سبحانه ومشيئته ، ويترتب على سمعه وبصره آثار وأحكام ـ بدليل أنّ من خُلق لا يسمع ولا يُبصر فقد سقطت عنه التكاليف والأحكام الشرعية.

وهكذا خلق الله تعالى الاختيار ، فالعبد مختار حقيقة ، ويترتب على اختياره آثار وأحكام ، وحقوق وواجبات ومسؤوليات.

فإنْ عَطَّلْت صفة الاختيار ، وزعمت أن لا اختيار له ولا مشيئة ـ لأنّهما بخلق الله تعالى ومشيئته ـ فيلزمك أنْ تعطّل بقيّة صفات الإنسان ، فهو ليس بحيّ ـ في زعم المنكر للاختيار ـ ولا سميع ولا بصير ، ولا قوي ولا عاقل ولا ولا... وهذا مخالف للواقع والعقل والشرع والفطرة.

وإن أردت زيادة تفصيل في الجواب فارجع إلى كتابنا: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة الأكوان) ، فالبحث فيه مفصّل ، وفي كتابنا : (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) أيضاً مفصّل ، وخذ هذه الجملة الموجزة: وذلك أنّ الله تعالى نسب للإنسان الأعمال والأفعال ، والكسب والصنع ، والصدق والكذب ، والعمل الحسن والسيء؛ وكذا وكذا من الأفعال ، وأنت تعلم أنّ الله يقول الحق ـ والحق هو : مطابقة الواقع حقيقةً ، والله يقول الصدق ، كما أخبر سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ والصدق هو : موافقة

الأمر الواقع كما هو ، إذن لولا أنّ تلك الأمور صادرة باختيارهم لما نسبها إليهم.

فإنّ الرجل إذا دخل داراً باختياره يقال عنه: دخل الدار ، وإن حُمل حَملاً وأُدخل فيها يقال: أُدخل؛ ولا يقال: دخلها ـ فافهم . . .